الجلسة الثانية:

مكافحة الفرقة

الحوار الداخلي والمواطنة

د. ياسين أقطاي[1]

يعد مفهوم المواطنة واحدًا من أهم المفاهيم السياسية الحديثة. وعندما تتم دراسة هذا المفهوم نستطيع أن نقول إنه قد وصل إلى نقطة مختلفة جدًا عن ما قد فُهم حتى الآن من علاقة الدولة بالمواطن وأيضًا أن ظاهرة المساهمة السياسية قد وصلت إلى أبعاد مختلفة جدًا. وأن وقوع الدولة تحت حماية شخص أو مجموعة فإنه في المقابل يتم النظر إلى الباقون باعتبارهم مجرد رعايا للدولة. وعلى قدر المستطاع فإن كل واحد من هؤلاء المواطنين يجب أن يلقى التقدير باعتباره شريكًا في الدولة بشكل متساو دون أن يرى أي من هؤلاء المواطنين في نفسه الأفضلية والأولوية على الآخر وأن هذا ليس شيئًا سيحدث وينتهي في لحظة ولكنها معاهدة جماعية تتطور باعتبارها نتيجة لسلسلة أحداث متوالية لحوار ومناقشة طويلين. وفي الأصل فإن القوانين في بلد ما بشكل عام عندما يتم الاستقرار على مبدأ باعتباره نظريًا فإن الكثير من الناس في بلدانٍ كثيرة الذين يقترفون بعض التفرقة والتحيز الفعلي الزائد عن هذا المبدأ النظري فإنه من الممكن أن يُسلم به باعتباره مفهومًا يرى أن المساهمة والمشاركة في الميدان السياسي لا معنى له وغير هام وعديم التأثير معتبره كحق طبيعي لهؤلاء الذين يمتلكون إمكانيات الدولة في قبضة يدهم.

---

[1] أستاذ علم الاجتماع بجامعة السلاجقة.

بيد أنه عندما نرى نطاق الدولة باعتباره شراكة أو معاهدة جماعية يمكن لنا أن نري هذه المشاركة باعتبارها حقًا أو حتى واجبًا دون النظر إلى كونها مؤثرة أو غير مؤثرة.

ومن أجل إمكانية تطور مفهوم ومستوى المواطنة فيجب على رعايا وأتباع الدولة أن يروها باعتبارها معاهدة شراكة والتي يجب أن يطوروا نطاق الدولة معًا.

وعن طريق هذه المعاهدة يُستشعر بالاحتياج بشدة إلى أجواء حوار جماعي من أجل إمكانية ملاحظة رعايا الدولة لأنفسهم أكثر وإمكانية الحفاظ أكثر على مصالحهم الشخصية وأيضًا من أجل إمكانية زيادة سلامة الجودة العامة للمعاهدة.

إن بعض الشعب التركي الذين يرون أنفسهم باعتبارهم دولة والذين يحاولون إخراج القطاعات الأخرى من نطاق الدولة بهذه أو تلك الملاحظات هم بالفعل دولة.

وفي هذه النظرية مقابل أن تكون مبادئ الجمهورية (الدولة) والديمقراطية صالحة ومتداولة فهي دولة لم تكن صلاحيات مبادئها هذه كثيرة بطريقة فعلية في الماضي.

وإلا فإن أجواء الحوار والمناقشة الديمقراطية ستسير طبقًا لهذه التناقضات وهذا سيجعل تركيا مع كل يوم يمر ويمضي بلدًا ديمقراطيا أكثر ومُساهِما تتلاءم أكثر مع مبدأ الجمهورية.

وفي هذا يوجد تأثير كبير لأجواء الحوار والمناقشة المكثفة التي حدثت في الفترة الأخيرة.

خاصةً أن المناقشات الدستورية التي في تركيا في الفترة الأخيرة إن لم تكن تعطي نتيجة واقعية حتى الآن فإن زيادة الوعي بالمواطنة وكون مفهوم الدولة باعتبارها معاهدة مساهمة مشتركة قد أصبح مؤثرًا جدًا في تزايد الوعي.

واليوم تقف تركيا على نقطة أكثر تقدمًا من ناحية الوعي الذي هو عبارة عن معاهدة مواطنة لكون كل شخص يملك حقوقًا وصلاحيات متساوية.

ومن أجل تطور الوعي بالمواطنة على هذا المنوال فإنه من المهم أن تُقام سلسلة من الحوار المكثف فيما بين المواطنين على مختلف طبقاتهم.

وفي هذا الإطار فإن من أهم الأسئلة للشعب في تركيا هي كون المناقشات الأيدولوجية (العقائدية) متوترة جدًا بشكل فائق، وكون البشر المختلفين منغلقين ومنطويين على عالم بعضهم البعض. وهذا الموقف أيًا كان من استولى على الدولة يقوم بتكوين بيئة ملائمة لإقامة دولة لفرقة بعينها تستخدم جميع إمكانات الدولة ضد الآخرين.

إلا أنه يجب تجاوز هذا وإخضاع الدولة لملكية الحكومة إذا جاز التعبير والطريق لهذا هو تخطي هذا الحوار وتلك المناقشة. وطرق هذا الحوار في تركيا وخصوصًا بعد الثمانينيات جرت بين الأطراف اليمينية واليسارية وأحيانًا أخرى بين القطاعات الإسلامية واليسارية بصفة خاصة.

إلا أن مقولة (ضربة عسكرية) قد أُثيرت بسبب مقولة (الخطر الإسلامي) قد ألحقت الضرر بالدولة وبجهود الحوار.

ومرة أخرى حاولت زمرة ما أن تعود بالدولة إلى ما كانت عليه في سابق عهدها. أمَا حركة الحوار التي توقفت كثيرًا في ضوء حركة فتح الله كولن في نهاية التسعينيات فقد أضافت هذه السلسلة من الأحداث إضافة هامة جدًا في كونها بدأت مجددًا ووصلت إلى نقطة واضحة.

وعن طريق مبادرة وقف الكُتاب والصحفيين عاد بمرور الوقت اجتماع أبانت إلى طاوله الحوار بشكل كامل وتم انعقاده في يوليه ١٩٩٨. اجتمع الأفراد من القطاعات المختلفة، حيث تطور المناخ الذي نوقش فيه كُنه المبادئ التي تستند إليها الدولة أو ماهيه الدولة من أجل تركيا يمكن العيش فيها كوَّن هذا المناخُ نموذجًا حيًا لبيئة المفاوضات الديمقراطية المطلوبة.

يمكننا القول بأن مستوى المواطنة متقدم بشكل أكبر في تركيا مع تطور النماذج أو الأرضيات المختلفة لطاولة الحوار تدريجيًا. كانت القنوات المختلفة للحوار والتي لا غبار عليها مؤثره في زيادة نوعية المواطنة. كانت من هذه القنوات، المساهمة الكبيرة لمناخ المناقشة الجديد الذي حققته الجامعات التي ازداد عددها والتلفزيونات التي تطورت منذ التسعينيات. وعن طريق برامج الحوار التي تذيعها التلفزيونات كل يوم،

تحققت مشاركة أكبر للرأي العام اللازم في الأمور التي تنجزها الدولة دون تفرقه بين المواطنين. يمكن رؤية الحوار من هذه الزاوية كأداة هامة لكينونة المواطن وليس للتبعية للدولة والمشاركة في السياسة والحياة السياسية.

القنوات السياسية الدولية

عن طريق القليل من التطورات في العالم والقليلة نوعًا ما في تركيا يمكن القول بأنه قد تم الوصول بالإسلاميين إلى مستوى متقدم إلى حد ما حتى ولو لم يكن إلى قمة الحياة السياسية كنتيجة لاستعاده الحياة السياسية بشكل متوازن لهذا الضرب من التطورات. ولا شك أنه لا بد من التصريح بعدم ارتباط هذه المعاهدات بالتطورات الداخلية لتركيا فحسب. ومن أهم الموضوعات التي يجب التأكيد عليها لا سيما من قبل العالم أو العولمة حول الجزء المتعلق بمجريات الأحداث:

إن العولمة قد خلفت الدولة الأُمّة كونها الممثل الأوحد للسياسة. وتكونت هذه الدولة كنتيجة لهذا من كونها الهدف السياسي الوحيد وكذلك الممثل السياسي الوحيد على مستوى العلاقات الدولية. تطورت تشكيلات الدولة لأداء وظيفة مختلفة تحت وطأة تطوير الحريات والتدقرط. ومما لا شك فيه أن هذا التدقرط قد أصبح ملائمًا للوضع السياسي الذي استلزم المشاركة المتعلقة بتوزيع العمل الدولي لطرق الاستهلاك والإنتاج الجديدة للرأسمالية. ألزم العالم المكتظ بالناس والأموال تطور الحياة السياسية الجديدة الملائمة لهذا الوضع المحتوم. ومن الناحية الأخرى، فإن وسائل الإعلام والنقل والاتصال المتزايدة في العالم، ركزت على إمكانية تناول تشابك النزعة القومية للهويات والثقافات وفي نفس الوقت، فتحت المجالات السياسية من أجل التحزب والاجتماعية المختلفة التي انتقلت من المستوى المحلي والقومي إلى المستوى العالمي. مهد كل من استخدام شبكة المعلومات والعلاقات الدولية المتزايدة الطريق المناسب لتأسيس التعاون وشبكات المعلومات القوية. حركه فتح الله كولن وفرصة التمثيل الدولي الجديد الذي تحقق بواسطة المدارس المفتوحة في الأماكن التي تجاوز عددها مائة دوله مكّن من جعل هذا التحرك الدولي شيئًا ما.

قد يُعتقد اليوم أن هذه الحركة عبارة عن تشكيل مُحصن ضد القرارات السياسية لأي حكومة دوله. إلا أن الوضع ببساطه أن حركة كولن ليست ممثلاً اجتماعيًا أو سياسيًا دوليًا وأنها لم تصل إلى هذا الحد. الحقيقة التي يجب تأكيدها أن فهم تمثيل هذه الحركة مختلف، حيث تجاوز النشاط داخل الحركة بانطلاق العولمة. وتمامًا مثل (Peter Mandaville) الذي سعى لشرح ما وراء المجتمع ضمن مفهوم سياسة المسلمين فقد انتقل من سلسلة الأحداث التي أوجبت المشاركة بممثلين جُدد دوليين أو محليين وكذلك قللت نسبيًا من أهميه الدولة الأُمّة أو قوتها على الأقل في العالم الذي نعيش فيه. والناس داخل هذه الأحداث ينقلون ثقافاتهم أثناء التجول أو الهجرة من دولة إلى أخرى. إلا أن الوضع لا ينتهي مع هذا، فالثقافات المتحركة والقافلات المتجولة والمهاجرة تعيش متقوقعه داخل نفسها.

وعند ذهاب شخص من تركيا إلى ألمانيا فإنه ينقل معه الثقافة الإسلامية. إلا أن الإسلام الذي نقله إلى ألمانيا (أو إلى أي دولة أوروبية أخرى) يعيش مرحلة تحول أو انتقال أيضًا. وعند النظر في هذا فقد كونوا ساحة لحياة انتقالية داخل الثقافة الدينية أو القومية التي حملوها معهم بنفس قدر الثقافة التي كانوا يحملونها عن طريق حركات الأشخاص المنتسبين لجماعة گولن.[1] وعلاوة على هذا فعلى الرغم من أن حركة گولن تمثل أقوى الأمثلة وأكثرها جذبًا للانتباه لتكون شبكة من هذا النوع، إلا أنها ليست المثال الوحيد. فقد تمكنت هذه القنوات من تكوين تشكيلات مماثلة لهذا.

كذلك يوجد بُعد رأسمالي لهذا الانتشار الذي تحقق على المستوى الثقافي. يشير أكثر لقناة تطور جديدة ومؤثرة للغاية وأفق محاولة جديدة. ظهر ناشطو الأناضول المحافظون المعروفون برأسمال الأناضول بالتزامن مع ظهور العولمة. والنقطة الهامة في هذا التطور الذي يشير إلى مجال الاتحاد والرأسمالية الإسلامية هو دور تكثيف الإسلامية بصفتها عامل يمكن تذكره في المقاييس العالمية وكذلك فإنه يكتسب صفة

[1] لإلقاء مزيد من الضوء على التطورات التي انعكست على أفكار وتصرفات گولن وجماعته خلال الرحلة التي امتدت من ارضروم إلى أمريكا عبر أدرنه وإزمير وإسطنبول، انظر: بولاچ، ٢٠٠٧. للمزيد انظر: أقطاي، ٢٠٠٦.

كونه يتخطى حدود الأمة. وحدت هذه العوامل كل أنحاء العالم في الميزان التجاري أو الاستثماري، وقدمت أقل إيجار للفاعل السياسي الإسلامي في هذا المجال؛ وذلك بتأثير ذاتيتها المحضة على الرغم من أن لم تكن تنوي هذا قط.[1]

ومن جانب آخر فإن مناطق استقرار المسلمين الجديدة التي خلقتها هجرات العمال والعقول من البلاد الإسلامية إلى الغرب خلقت واقعًا إسلاميًا أوروبيًا أو غربيًا. خلق الواقع الإسلامي الغربي بعدًا جديدًا لنقد علم الشرقيات الكلاسيكي الإسلامي، وكذلك تسبب هذا الواقع الإسلامي الغربي في قيام المسلمين بتفسيرات كثيرة بشأن كونهم مواطنين يعيشون في مجتمع غير مسلم باعتبارهم طبقة من طبقات المجتمع. وبالإضافة إلى تعريف مفهوم مثل العلمانية باعتباره مفهومًا عكس الإسلام في أصله، فقد تم تعريفهم كطبقة ممكنة بشأن إنشاء ساحة عامة مشتركة بين المسلمين وغير المسلمين، وكذلك تم تعريفهم كطبقة مقبولة. وفي الوقت الحالي قام عدد كبير من الطلاب المسلمين، بل الأساتذة، بعمل أبحاث في علم الشرقيات في جامعات أوروبية كثيرة. تخطى علم الشرقيات الذي أفرزته هذه التشكيلات كثيرًا من المشكلات المعتادة لعلم الشرقيات الكلاسيكي، وكذلك أدى إلى إفراز معلومات صحيحة أكثر عن الإسلام في ظل الظروف الغربية. وفي حين يتم الحديث عن مفهوم أن يكون الشخص مسلمًا في ظروف غربية، ازداد عدد الدارسين في مجال الفقه الإسلامي المعاصر في الظروف الواقعية حول كون المسلمين أقلية في مجتمع غير مسلم.

خرجت هذه الظروف عن وجهة النظر التي تقسم أراضي العالم إلى دار حرب ودار إسلام. وبدلاً من هذا تم الاتجاه نحو تشكيل قواعد فقهية جديدة تخمرت في معاني مصطلح المواطنة على مستوى يمكن إدراكه باعتباره أمرا يتوافق مع أحدث مفهوم للدولة. وربما يكون مصطلح المواطنة كعقد هو أحد أهم الأرضيات التي تؤسس

[1] لتحليل جيد فيما يتعلق بالجزء العملي في تكوين الديناميكيات الدينية والذهنية الموجودة في تشكيل بورجوازية الأناضول، انظر: أوزدمير، ٢٠٠٦. لمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على أعمال مصطفى أوزل الذي قدم مساعدات مستنيرة قوية منذ لإرساء الأسس الذهنية والثقافية والنظرية لهذا التشكيل المشهور بنمور الأناضول منذ -بدايته. كذلك تحتوي أعمال أوزل على تحليل جيد للتجهيزات والتطورات التي طرأت على هذا التشكيل باعتباره عاملاً عولميًا. انظر: أوزل، ١٩٩٤؛ ١٩٩٥؛ ١٩٩٧. انظر أيضًا: دمير، آجار، طوبراق، ٢٠٠٤.

السياسة الإسلامية. وأرست الفاعلية الإسلامية أحاسيسهم وإرادتهم حول مفهوم المواطنة على هذا المستوى.

فالمثقفون المسلمون الذين تزعمهم طارق رمضان الرجل ذو الصيت والسمعة حفيد حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين بمصر والذي يعيش حاليًا في النمسا وقبلها في إنجلترا، فعلى سبيل المثال؛ عند النظر للمسلمين في أوربا باعتبارهم مواطنين أوربيين سعداء بدينهم الإسلامي، وعدم ارتباط السياسة الإسلامية دائمًا بشكل ما محدد، يجعل منها نموذجًا جيدًا للقدرة على التفكير الأيدلوجي المناسب للتماشى مع جميع الظروف. وعلى ما يبدو أنه عندما كان لدى المسلمين استعداد ما للتكيف مع النظام القائم فقد كان سؤال من أين تنبع السياسة الإسلامية التي يزداد الشعور بوجودها يومًا بعد يوم هو سؤال في محله، على الرغم من اختلاف ماهية هذا التكيف. وعلى حين كان العديد من المحللين السياسيين يصفون هذا الوضع (التكييف) على أنه نهاية التيار الإسلامي، فقد سعيت إلى التعريف بالتيار الإسلامي معتمدًا على أسلوب سياسي أكثر دقة، يوضح أن التعريف الأكثر قوة لهذه السياسة هو السياسة الإسلامية.

فالتيار الإسلامي سواء على مستوى مسلمي أوربا أو تركيا تبدو رغبته الواضحة في تمثيل وحماية مصالح المجتمع على أساس قانوني، سواء كان هناك على الساحة السياسية من يؤيده أو يعارضه. وما يلفت النظر هو أن هذه الرغبة لم تكن من خلال تغيير سياسي أكثر صرامة وإنما نتيجة للظروف التي ظهرت بعد انتهاء الخلافة عن طريق الجماعات المرنة التي نشأت في تلك الفترة. فهذه التجمعات المرنة عندما كانت تحرك الشعور العالمي (حس الأمة الإسلامية) الأكثر قوة بالتوازي مع العولمة من ناحية، فقد كانت على الجانب الآخر تهتم بالفردانية. وبلا شك فقد ظهرت في تلك الفترة العديد من الجماعات المختلفة. فالعلاقات المتزايدة من ناحية أخرى لجماعات مثل (جماعة كولن، الإخوان المسلمين، جماعة التبليغ، حزب التحرير، الجماعة الإسلامية) التي تمت من خلال مبادرة الجماعات المحلية، فإنه على الناحية الأخرى كونت الشبكات العالمية أحيانًا ساحات فردية-مستقلة لكي تستطيع أن تكون بديلاً لحكم الجماعات

المحلية كمراقبة منادفيل كما ذكرنا سالفًا. فالتحركات العالمية والجولات المتزايدة زادت من صلات المسلمين مع غيرهم من الثقافات والديانات الأخرى وأيضًا زادت من سرعة التأثر فيما بين المجتمعات المسلمة المختلفة، فهذا التأثر يسير بشكل يقرب جميع الأفكار الدينية أكثر من بعضها البعض من خلال القنوات الدينية الموجودة بالداخل وإذا كان من الضروري إعطاء نماذج عملية أخرى غير استخدام الإنترنت (شبكات المعلومات الدولية)، فإنه ومع منافسة الكثير من الأفكار الإسلامية المختلفة لبعضها البعض في نفس الوقت وعلى نفس الشاشة إلى جانب تطور تكنولوجيا الأقمار الصناعية، وسائل الاتصال والنشر فمن الممكن أن نذكر وسائل البث التلفزيونية والإذاعية التي حرصت على الأفكار والجودة في الوقت ذاته. فعند الإشارة إلى التنوع والاختلاف في مستوى الأفكار والعلوم الإسلامية من ناحية والوفرة الموجودة بدرجة مفرطة في هذه البرامج، نجد أنها قدمت ممارسة فعلية لتلك القنوات إلى جانب أنها قربت بين العديد من المشاهدين. وفي النهاية يمكن القول بأن الثقافة العامة والعالمية والمتاجنسة الموجودة في استخدام وسائل الإعلام والاتصال وإذا أردتم يمكنوا أن تسمونها بصناعة الثقافة، قد سعت على نفس المستوى للقيام بوظائف أكثر إيجابية تجاه مبادئ الإسلام العامة. فلينقد من شاء أن ينقد ثقافة الأمة إلا أنه في النهاية يمكن القول إنها رغبت في تغذية شعور أو إدراك الأمة الإسلامية. فبدون أدنى شك أن ما قامت به هذه الثقافة وحدها ليس بشيء. فعندما كان هناك منهج واحد يتبعه جميع المسلمين على مستوى العالم في موسم الحج من كل عام في نفس التوقيت والتقويم وعلى نفس الطقوس، وعندما كان هناك تجمع كبير للمسلمين الذين يقرب عددهم ما لا يقل عن خمسة ملايين مسلم أمام الكعبة وفي عرفات بالإضافة إلى عائلاتهم وأقاربهم الذي يصل عددهم إلى ما بين ثلاثين إلى أربعين مليون تقريبًا فهذه الصلة والعلاقة بين المسلمين في موسم الحج كانت بمثابة جولة لتبادل الشعور والفكر لهم. وإلى جانب التكنولوجيا المتطورة يوم بعد يوم فإن المظاهر المتعددة الألوان والأشكال والحساسة واللافتة للنظر جعلت العالم الإسلامي يؤثر أكثر في عالم الفكر. فلو أجريت العدد من

الدارسات على المنافع الأخرى المختلفة لرحله الحج ووظيفتها في تكوين فكر وشعور الأمة لوجد أنه المكان المنوط بذلك. فالمنسك المحدد الذي يؤديه جميع الموجودين بالفعل في موسم الحج، حتى إنهم عندما يصلون إلى الحد الأكبر أثناء رحلات العمرة على مدار العام، فإنه من الممكن أن يكون نفس الذي يأتي على مدار العام بأكمله هو العدد الذي يشهد روحانية الحج ومناسكه في نفس الوقت.

والواضح أنه كلما زادت العولمة السياسية المتداخلة مع أهم مبادئ الدين الإسلامي، ظهر الشعور والرغبة في الهوية على نطاق كبير.